مكاتب المسلمين

المكاتب (الكتبخانات) دليل على كثرة المعارف وتفوّق العمران وقد اثبت البحث في خرائب بابل واشور ان الميل الى جمع الكتب ليس حديثًا في الدنيا

وبالانتقال من فجر التاريخ الى نهاره الساطع الضياء نجد في الرومان رغبة شديدة في جمع الكتب اما ليستفيد منها افراد الناس او ليستفيد منها الجمهور. ولقد ظهرت هذه الرغبة من كثيرين من ملوكهم ولاسيما من أُليبوس تراجنس الذي انشأ اوسع المكاتب الملكيّة . ويقال انهُ كان في رومية وحدها في القرن الرابع لميلاد ثمانٍ وعشرون مكتبة عمومية ولم تكن المكاتب محصورة في العاصمة وحدها

ولقد كان سقوط المملكة الرومانية الغربية بداءة انحطاط شأن المعارف فان البرابرة الذين افتحموا تخومها تغلبوا عليها فنُسيت معارف الرومان او لم يبقَ لها شأن الا عند نفر قليل

ومرّت قرون على اوربا تنازلت فيها عن حقها في عضد المعارف لامّة اوجدها نداء الرسول العربي فان المسلمين وجّهوا اعتناءهم الى رفع منار العلم بعد ان خرقوا سياج مملكة الروم وقوّضوا دعائم مملكة الفرس . ومرّت القرون الوسطى وازمّة العمران في يد ابناء الصحراء

ولا بأس بايراد فذلكة من تاريخ المعارف عند المسلمين تمهيدًا للكلام على مكاتبهم

من البيّن ان العرب كانوا على شيء من المعارف حتى في عصر الجاهلية يدلك على ذلك ما يُروى عن سوق عكاظ حيث كان الشعراء يتبارون ويُحكَّم بالسبق للمبرزين منهم فكتب قصائدهم في القباطي وتعلّق على الكعبة اكرامًا لهم . الاّ ان اقدم المحفوظ من اشعارهم لا يمتد الى ابعد من قرن قبل الهجرة ولو قال قوم خلاف ذلك ولم تعرف الكتابة عندهم الاّ قبل الهجرة بزمن يسير غير انها دفعتهم الى تسطير المحفوظ من اخبارهم واشعارهم ومهّدت السبيل الى ارتقائهم العقلي وتلا ذلك ان ابا الاسود الدؤلي وضع قواعد النحو باشارة الامام علي فكان هذا مبدأ تدوينهم علوم اللغة

وبقيت معارف العرب قليلة جدًّا حتى موت النبي ولكن لم يمضِ عليهم وقت طويل حتى اتصلوا بالفرس والروم فعرفوا فوائد الحضارة وكان الفرس الذين بلغوا شأوًا رفيعًا من العمران في عهد آل ساسان معلميهم الاولين ويتلوهم السريان الذين ارشدوهم الى علوم اليونان وفلسفتهم فنقلوا من الفرس الغناء والبناء والنقش والسياسة والفلسفة وحب التحلي والتأنق . واكثر علماء الاسلام من سكان بخارى وخرسان وبلخ ومن تلامذة مدارس البصرة ونيسابور وسمرقند وهرات

من اصل فارسي او تركي. اما علوم اليونان فجاءت عن يد نصارى نصيبين والرها . وكان اكثر حملة العلم من الموالي كما قال الخليفة عبد الملك

ولم يكد المسلمون يدخلون ميدان العلم حتى خطوا فيهِ الخطى الطوال وسار خلفاؤهم وكبراؤهم في مقدمتهم ولم يكن قد نشأ فيهم شيء من التعصُّب الديني الذي من شأنهِ احتقار ما عند غيرهم من العلم والفلسفة بل تعلموا من الامم التي غلبوها واتقنوا علومها . واول مدرسة علمية في القرون الوسطى كانت مدرسة طليطلة التي انشأها العرب. وكانت مدرسة القاهرة المعروفة ببيت الحكمة على الاسلوب الذي اشار بهِ الفيلسوف باكون بعد ذلك بزمن طويل

واول من عني بجمع كتب العلم من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي وقد ذكرهُ ابن خلدون ونفى ما ينسب اليهِ لكن الاستاذ شبلي خطَّأ ابن خلدون واثبت الفضل لخالد مستشهدًا بما قالهُ ابن نديم الذي قال ان خالدًا كان من اعلم الناس بفنون العلم ولهُ كلام في صناعة الكيمياء والطب وكان بصيرًا بهذين العلمين متقنًا لها ولهُ رسائل دالة على معرفتهِ وبراعتهِ وبامرهِ ترجمت كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية . وبقيت رسائلهُ الى زمن ابن نديم

ولما تمهدت الامصار للخلفاء اخذوا في جمع كتب العلم الى ايام ابي جعفر المنصور فعني بترجمة كتب الفرس واليونان حتى اذا كثرت الكتب المترجمة والمؤلفة لدى الرشيد بنى لها بيت الحكمة وجعلهُ خزانة لها وديوانًا للمترجمين . فتقاطر العلماء الى بلاد المسلمين وكانت الكتب المجموعة في بيت الحكمة بلغات مختلفة فارسية ويونانية وقبطيَّة وسريانية. وكان يحيى بن خالد البرمكي رئيس هذه النهضة ومقدامها فاعتنى خصوصًا بنقل علوم الفرس لانهُ فارسيٌّ ونقل علوم الهند ايضًا

وجاء المأمون بعد الرشيد فاقتفى خطواتهِ وزاد في جمع الكتب وترجمتها ويقال انهُ انفق على ترجمة كتب اليونان ثلثمئة الف دينار . ولما كان في مرو راقت لهُ اساليب الفرس فاقتدى بازدشير وجمع كثيرًا من التحف القديمة مما كان في بلاد العرب قبل الاسلام من ذلك كتابة كتبها عبد المطلب بيدهِ . وبقي جانب من الكتب التي جمعها الى القرن السابع من الهجرة ورآها ابن ابي اصيبعة (صاحب كتاب طبقات الاطباء) . والاهتمام بجمع الكتب وترجمتها دعا الى الاهتمام بصناعة النساخة والتجليد فاشتهر بالاولى ابن البواب وابن مقلة ووزير المقتدر بالله وياقوت المستعصمي وميرعلي وكان العرب يتنافسون في اجادة الخط كما يتنافس غيرهم في التصوير حتى ان الخليفة عثمان كتب بيدهِ اربع نسخ من المصحف ارسلها الى الآفاق واقتفى اثرهُ الحجاج بن يوسف الثقفي واهدى نسخ المصحف التي نسخها بيدهِ الى عواصم المملكة

وكان السلطان ابرهيم بن محمود الغزنوي يجيد الخط ويكتب نسخة كاملة من القرآن كل

سنة يرسل بها الى مكة. وذكر ابن خلدون ان السلطان ابا الحسن سلطان افريقية كتب نسخة من القرآن يبدو وبعث بها الى مكة ونسخة اخرى بعث بها الى المدينة وكان ينوي كتابة نسخة ثالثة يبعث بها الى بيت المقدس فتوفي قبل اتمامها

وانتشرت الرغبة في جمع الكتب في بغداد كلها اقتداء بالمأمون وكان كبراء الامة لا يضنون بمال في هذا السبيل فانشأ الفتح بن خاقان وزير المتوكل بالله مكتبة عظيمة . وكان وزير الواثق بالله ينفق ثلاثين الف دينار كل شهر على ترجمة الكتب ونسخها

وكانت كتب الواقدي (في القرن التاسع) تملأ ستمئة صندوق ويقتضي حملها مئة وعشرين جملاً

ولما انتقلت الخلافة من بني امية الى بني العباس هرب عبد الرحمن الاموي الى الاندلس فرحّب به اهلها وانشأ دولة في قرطبة فناظرت القاهرة وبغداد اوفاقتهما . وبلغت علوم العرب اوجها في بلاد اسبانيا فلها اوربا مدينة اعظم دين لانها اوقدت مصباح المعارف في اوربا . وكان للمستنصر بالله الحكم سلطان قرطبة اليد الطولى في هذه النهضة العلمية فانهُ جلب كتب الفلسفة من البلاد الشرقية وامر بترجمتها . قال المقري انهُ "كان يبعث في شراء الكتب الى الاقطار رجالاً من التجّار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوهُ ويبعث في كتاب الاغاني الى مصنفهِ ابي الفرج الاصفهاني وارسل اليهِ الف دينار من الذهب العين فبعث اليهِ بنسخة منهُ قبل ان يخرجهُ الى العراق. وجمع بدارهِ الحذّاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد فاوعى من ذلك كلهِ واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبلهِ ولا من بعدهِ الاَّ ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى ان بيع اكثرها في حصار البربر" . واثبت ابن خلدون ان اسماء دواوين الشعر كانت تملأ ٨٨٠ صفحة

واختلف المؤرخون في عدد الكتب التي كانت في خزائن الحكم ولكنهم اتفقوا على انها كانت كثيرة وكان على كثير منها شروح وحواش بيدهِ

وخلف الحكم ابنهُ هشام المؤيد بالله وكان صغيراً فولي الاحكام وزيرهُ المنصور ابن ابي عامر وكان كارهاً للفلسفة فاتلف كتب الحكمة والهيئة وكل ما فيها من علوم الاوائل وابقى كتب اللغة والشعر والتاريخ والفقه والحديث وظلَّ الحال على هذا المنوال والناس على غير رأي الحكم الى ان انقرضت دولة بني أُمية من الاندلس

ثم كثرت الفتن في البلاد وعبثت بالكتب الايادي فنقل بعضها الى اشبيلية وبعضها الى غرناطة وبعضها الى الالمرية وغيرها من العواصم . وبلغ عدد المكاتب العمومية في اسبانيا لمَّا

كانت في اوج مجدها في عصر العرب مبعين مكتبة . ولا يزال فيها حتى الآن كثير من كتب العرب رغماً عمّا مرّ بها من ازمنة البؤس ورغماً عما ابداهُ النصارى وقت اخراجهم العرب

نقل المقري عن الحضرمي ما خلاصتهُ ان الحضرمي كان يقيم في قرطبة ويحضر سوق الكتب كل يوم عساهُ يعثر على كتاب كان يتطلبهُ وظل على ذلك اياماً واخيراً عثر على الكتاب المطلوب فساومهُ وصار كلما زاد الثمن زادهُ الدلال اكثر حتى بلغ مبلغاً فاحشاً لا يستحقهُ فقال للدلال مَن مناظري في ابتياع هذا الكتاب فاراهُ رجلاً من الكبراء فحياهُ الحضرمي قائلاً حيّا الله مولانا الاستاذ على ما تغالي في هذا الكتاب فقد فاق ثمنهُ ما يستحقهُ فان كنت ترغب فيهِ فهو لك من غير مزايدة فقال الرجل لست استاذاً ولا انا عارف موضوع الكتاب ولكن في بيتي خزانة كتب جمعتها ليعلو بها شأني بين اقراني ولم يزل فيها فراغ يسع هذا الكتاب فاريد ان ابتاعهُ لتتم بهِ

ولما عقد الصلح بين ابي يوسف سلطان المغرب الاقصى وبين دون سخو كان من جملة شروطهِ ان يرد دون سخو الكتب التي غنمها من مدن المسلمين فردها ووضعها السلطان في المدرسة التي بناها بفاس لكي يطالعها طلبة العلم

ولما ضعف شأن الخلفاء العباسيين وقوي ملوك الطوائف استقلّ بنو سامان في بخارى وبنو حمدان في الشام وبنو بويه في شيراز والفاطميون في مصر . وكانت هذه الدول المستقلة تتنافس في رفع شان العلم وتقريب رجالهِ فانشأ نوح بن منصور سلطان بخارى مكتبة كبيرة قال عنها ابن سينا انهُ دخلها وكانت عديمة المثال فيها من كل فن من الكتب المشهورة بايدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمهِ فضلاً عن معرفتهِ فظفر فيها بكتب من علم الاوائل وغيرها وحصل نخب فوائدها واطلع على اكثر علومها

ونوح بن منصور هذا هو الذي عرض الوزارة على الصاحب بن عباد فاعتذر عن قبولها بانهُ لا يستطيع ان ينتقل اليهِ ما لم يأخذ معهُ كتبهُ وهي حمل اربع مئة جمل

وذكر البشاري ان عداد الدولة انشأ في شيراز اكبر المكاتب وجعلها في جانب من قصرهِ ولم يكن لها مثيل في ممالك الاسلام . وقال الامام الثعالبي انهُ ما من دار من دور الامراء بعد دوز العباسيين كانت كثيرة الكتب مثل دار سيف الدولة وهو الذي قرّب ابا نصر الفارابي وكان يجري عليهِ النفقة الى حين وفاتهِ . وقضى ابو الفرج الاصفهاني خمسين سنة في جمع كتاب الاغاني وحملهُ اليهِ فاجازهُ بالف دينار واعتذر اليهِ عن قلّة المال لديهِ

(ترجمت من مقالة في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية للقاضي خوده بخش قاضي قضاة حيدر اباد . وستأتي بقيتها)